تسلية المؤمنين بهَوان مُصيبة الدنيا عند سَلامة الدِّين

تصنيف:

الصغيّر بن عمّار

- غفر الله له ولوالديه -

النسخة الأولى

١٤٤٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هانَت به كُلُّ المِحَن، وصلَّى اللهُ وسلَّم على الذي كانت بعثتُه من أجَلِّ المِنَن، وموتُه مصيبةً هبَّت بعدها رياحُ الفِتَن، وعلى آلِه وأصحابه أولي الصبر والسلامة من كل شبهة أو شك ودَرَن. أما بعد،

فهذه كلمات مختصرة في موضوع مهم للغاية، في ذكره سُلوة لكل محزون، وعبرة لكل قلب مكلوم، وهو بيان أنَّ مصائب الدنيا -وإن جلَّت- فإنها هيِّنَةٌ إذا سَلمَ الدين، واستقامت الأحوال، ورضي رب العالمين.

وسميت هذه الرسالة: «**تَسليةُ المؤمنين بهَوان مُصيبةِ الدنيا عند سَلامة الدين**».

الداعي إلى تأليف الكتاب

وأما عن سبب الكتابة في هذا الموضوع، فهو راجع إلى أمور:

- **منها**: التقرب إلى الله تعالى بنُصح المسلمين وتذكيرهم.
- **ومنها**: تسلية المؤمنين الذين أَنـْهَكَهم البلاء، وأرَّقَهم الحزن على ما فات من الدنيا، وأن سلامة الدين هي السعادة الحقيقية، التي من حُرمها حُرم كل الخير، ولو أصابته صنوفٌ من الأذى والقلَق والضَّير.
- **ومنها**: أني لم أر رسالةً مستقلة في هذا الموضوع على أهميته.
- **ومنها**: قلة العناية بعلم السلوك عند المتأخرين، مقارنة بالتصنيف في سائر العلوم.

- **ومنها**: أنه قد اجتمعت لدي عدة فوائد في الباب، بعضها مبثوث في كتبي، وبعضها كان في ملف مستقل، فاستخرت الله في جمعها في موضع واحد تحت هذا العنوان.

والكتابة في علم السلوك أمر مهم لطالب العلم، لأنَّ هذا الدين مبني على مراتبَ ثلاثةٍ:

الإسلام، وعليه مدار الفقه، إجمالا.

والإيمان، وعليه تنبني أصول العقيدة.

والإحسان، وعليه مدار السلوك وما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من أعمال القلوب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1]: «والعلم الممدوح هو الذي ورَّثه الأنبياء، وهذا العلم ثلاثة أقسام:

الأول: علم بأسماء الله وصفاته وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله «سورة الإخلاص» و «آية الكرسي» ونحوهما.

والثاني: العلم بما أخبر الله تعالى به مما كان من الأمور الماضية ومما يكون من المستقبلة وما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثله أنزل الله القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار.

والثالث: العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح، من الإيمان بالله، **ومن معارف القلوب وأحوالها**، وأحوال الجوارح وأعمالها، وهذا يندرج فيه العلم

1- «المستدرك على مجموع الفتاوى» (1/ 12).

بأصول الإيمان، وقواعد الإسلام، والعلم بالأقوال والأفعال الظاهرة مما هو في كتب الفقه». انتهى.

وإلى هذا أشار ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله[1]:

والعلـــــم أَقسَـــــامٌ ثَـــــلَاثٌ مَاهَـــــا ... مِـــــن رَابِـــــعٍ وَالحـــــقُّ ذُو تِبْيـــــانِ
علـــــمٌ بأوصـــــاف الإِلَـــــهِ وفِعلـــــهِ ... وكـــــذلك الأســـــماءُ للـــــدَّيانِ
والأَمـــــرُ وَالنَّهْـــــيُ الَّـــــذِي هُـــــوَ دينُـــــهُ ... وجـــــزاؤُهُ يـــــومَ المَعَـــــادِ الثَّـــــانِي
والكُـــــلُّ في الْقُـــــرْآنِ والسُّـــــنَنِ التـــــي ... جَـــــاءَت عَـــــن المَبعـــــوثِ بالفُرقـــــانِ
واللهِ مـــــا قـــــالَ امْـــــرُؤ مُتَحَـــــذْلِقٌ ... بِسِـــــواهُما إِلَّا مِـــــنَ الهَـــــذَيانِ

والمتأمِّلُ في الكتب المصنفة في اعتقاد أهل السنة والجماعة يجِدُ أنَّ من المسائلِ المُودَعَةِ فيها: أخلاقَ أهلِ السنة وصفاتِهم التي تَـحَلَّوْا بها: مِن العبادةِ، واحتقارِ النَّفس، والعملِ الصالح، والإحسان إلى الخَلق، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأوصاف المَجيدة.

وبهذا يَجمَعُ أتباعُ السَّلف بين الهُدى، وهو العلم النافع، ودين الحق، وهو العمل الصالح، **لأنَّ دينَ أهلِ السُّنَّة والجماعة ليس عقائدَ قلبيَّة فحَسْب، بل دينُ أهلِ السُّنَّة والجماعة هو: عقائدُ قلبيةٌ، وحقائقُ إيمانيةٌ، تَبدُوا على الجوارح والأركان.**[2]

1- «شرح النونية» (2/ 243)، للهراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

2- وقد تكلمت عن هذا في كتابين: «واسع المنة بالتعليق على شرح السنة»، و«نهج الاقتصاد شرح حائية الاعتقاد»، نفع الله بهما كاتبًا ومَن قرأ.

وانطلاقا من هذه النظرة الشمولية للدين، كتبتُ –بفضل الله– بعضَ الرسائل في السلوك وأعمال القلوب، منها:

- «شرح منظومة السير إلى الله والدار الآخر» للعلامة ابن سعدي.
- و«شرح قصيدة أنا الفقير» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

واللهَ أسأل أن يَلطُفَ بِنا، وأن يَرزُقَنا العَفو والعافِيَـة والمُعافاةَ الدائمَةَ في الدين والدنيا، وأن يجعل أعمالَنا لوجهه خالصة، ولسنة نبيِّه موافقة، وصلَّى اللهُ على نبينا محمد وآلِه وصحبه وسلَّم.

وكتب: الصغيِّـر بن عمَّـار

ظهر الأحد 24 من ذي الحجة لعام 1440،

الموافق لـ 25 أوت 2019، بـــمدينة «لـــيون» بـفـرنـسا

الحياة مبنيَّة على الابتلاء

إنَّ المقصودَ من الخَلق هو تحقيق عبودية الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فابتلاهم بالعبادة التي فَطَرهم عليها، وبعث إليهم بهذا رسلَه، وأنزل برحمته عليهم كتبَه، فاتضَّحت بهذا المَحَجَّة، وقامت على الناس بذلك الحُجة، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٦٥]، فانقسموا إلى شقي وسعيد، ومقرب وطَريد.

قال العلامة ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**فزيغ الزائغين عن طاعة الله تعالى انحراف منهم عن الفطرة التي فطروا عليها، وهم في انحرافهم متفاوتون**، فالضالون الذين أشركوا بالله فجعلوا له أندادا، والعصاة الذين لم يخرجوا عن توحيده، ولكنهم ربما خالفوا بعض أوامره قليلا أو كثيرا، هم في ذلك آخذون بجانب من الإباق متفاوتون فيه». انتهى.

وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[الأعراف: ٢٩ - ٣٠]، **وهذه آية جامعة**[2] **جمعت**:

أصول الشرائع الواجبة، وأعظمها إخلاص الدين لله.

1- «التحرير والتنوير» (21/ 82).

2- كما قال العلامة ابن سعدي في «مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» (ص 17).

ومصير الخلق، وأنهم عائدون إلى الله يوم القيامة كما بدأهم في الدنيا،

وانقسامهم بعد نفاد قدر الله فيهم- إلى فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[الشورى: ٧].

والعبد في هذه الدنيا يسير إلى الله تعالى بقلبه يَقطع مَفَاوِزَ الآخرة حتى يصل إلى ربه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالمؤمن في الدنيا يسير إلى ربه حتى يَبلُغَ إليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[الحجر: ٩٩].

قال الحسن: يا قوم المداومةَ المداومةَ، فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، ثم تلا هذه الآية...». انتهى.

فإذا سار القلب إلى الله، وانقطع إليه، تقيَّد بحُبِّه، وصار في وِثاق العبودية، فلم يبق له مَفزَعٌ في النوائب، ولا ملجأٌ غيرُه، ويصير عدَّته في شدَّتِه، وذخيرتَه في نوائبه، وملجأَه في نَوازلِه، ومستعانَه في حوائجه وضروراته.[2]

وعليه، فإنَّ الوصول إلى الله نوعان:

أحدهما: في الدنيا.

والثاني: في الآخرة.

1- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 442).

2- «شرح منظومة السير إلى الله» (ص 9)، لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فأما الوصول الدنيوي فالمراد به: أن القلوبَ تصل إلى معرفته، فإذا عرفته أحبته، وأنِست به، فوجدتهُ منها قريبا ولدعائها مُجيبا.

وأما الوصول الأُخْرَوِي: فالدخول إلى الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه.

ولكنهم في درجاتهم متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في الدنيا في القرب والمشاهدة.[1]

فإنَّ اللهَ تعالى يُري عبدَه في قَطْعِ مَسافَة سَفَرِه آياتٍ يُرسِلُها تَخويفًا لعِباده، لئَلا يَمِيلُوا عن طَريقِهم المستقيم، ونَهجِهم القَويم، فمَن مالَت به راحِلَتُه عن طريق الاستقامة، فرَأى ما يَخاف منه، فليَرغَب إلى الله بالرُّجوع إليه عمَّا ارتكبَه من السُّبُل، فيَتوبَ من مَعصِيته، ويَبكي من قَسوَته، فإذا انتبَه من رَقْدَةِ كَسَلِه، عَلِم أنَّ الدنيا دارُ غُرورٍ طُبِعَت على كَدَر. [2]

طُبِعَـــت عـــلى كَـــدَرٍ وأنـــتَ تُرِيـــدُها صَـــفْوًا مِـــن الأَقْـــذَارِ وَالأَكْـــدَارِ

الحياة بين منزلتي الشكر والصبر

العبد في حياته إنما هو ماض إلى الله تعالى، وفي هذا الطريق يمر بمنازلَ لن يدخلَ الجنة حتى يقِفَ بِها.

ومن ذلك منزلة الشكر ومنزلة الصبر، لأنَّ العبدَ في هذه الدار يتنقَّلُ بين:

- نِعَمٍ من الله تعالى تترادف عليه، قَيدُها الشكر.

1- «المحجة في سير الدُّلجة» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 447-448) باختصار.

2- بتصرف من «تسلية أهل المصائب» (ص 247)، للمَنبِجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- ومِحَنٍ من الله تعالى يبتليه بها، فَرضُه فيها الصَّبر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فإن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يبتَلِه ليُهلِكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبرَه وعبوديتَه، **فإن لله تعالى على العبد عبوديةَ السراء، كما له عبوديةٌ في الضراء، وله عليه عبوديةٌ عليه فيما يَكره، كما له عبوديةٌ فيما يحب، وأكثرُ الخَلق يُعطُون العبوديةَ فيما يحبون، والشأنُ في إعطاء العبودية في المكاره**، ففيها تتفاوت مراتب الناس في الدنيا، وعليها تتفاوت مراتبهم في الآخرة». انتهى.

والناس كما قال الحسن البصري: «**كانوا يتساوون في وقت النعم، فإذا نزل البلاء تباينوا**».[2]

ومِن شعر أبي الطيِّب المتنبي:

لولا المشقَّةُ سادَ الناسُ كلُّهُمُ الجُودُ يُفقِرُ والإِقْدامُ قَتَّالُ

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «والإيمانُ القويُّ يَبينُ أثَرُه عند قُوَّة البَلاء». انتهى.

وقال زياد بن عمرو[4]: «**كلنا نكره الموت وأَلَم الجِراح، ولكنا نتفاضل بالصبر**».

وبهذا ارتفع أولياء الله المتقون، **الَّذين فَعَلوا المَأمورَ، وتَركوا المَحظُور، وصَبَروا على المَقدور، فأحَبَّهُم اللهُ وأحَبُّوه، ورضِيَ عنهُم ورَضُوا عنه**.[5]

1- «الوابل الصيب» (ص 5).

2- انظر: «اليقين» (13)، لابن أبي الدنيا.

3- «صيد الخاطر» (ص 200).

4- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (50).

5- «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص 151).

ولهذا، بعد أن أمَر اللهُ بذِكره وشُكرِ في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]، قال بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٣]، الآيات في الصبر.

قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لما فَرَغ سبحانه من إرشاد عباده إلى ذِكره وشُكره، عقَّب ذلك بإرشادِهم إلى الاستعانة بالصبر والصلاة، **فإنَّ مَن جَمَع بين ذِكر الله وشُكره، واستعان بالصَّبر والصلاة على تأدِيَة ما أمر الله به، ودَفْعِ ما يَرِدُ عليه من المِحَن فقد هُدِيَ إلى الصواب ووُفِّقَ إلى الخير**، وإنَّ هذه المعية التي أوضحَها اللهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصَّبر على ما يَنُوبُ من الخُطُوب، **فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال**». انتهى.

ومن تأمَّل اختبار الله تعالى لعباده وجده تارةً يكون بالمسارِّ ليشكروا، وتارة بالمضارِّ ليصبروا. فصارت المِنْحة والمِحْنة جميعاً بلاءً. فالمِحْنة مقتَضِيةٌ للصَّبر، والمِنحة مقتضيةٌ للشكر، **والقيامُ بحقوق الصّبر أَيسر من القيام بحقوق الشكر**، فصارت المِنْحة أَعظم البلاءَين.[2]

1- «فتح القدير» (1/ 183).

2- بتصرف من «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» (2/ 274)، للعلامة الفيروزآبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. واستفدت هذا النقل من محقق كتاب «الفتن والبلايا والمحن والرزايا»، للعز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فإن فتنة السراء أعظم من فتنة الضراء، وفى الحديث: «**أعوذُ بك مِن فِتنَةِ الفَقر، وشَرِّ فِتنَة الغِنَى**»[2].

ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر والشكر، لكن لما كان في السراء اللذة، وفى الضراء الألم، اشتهر ذكر الشكر في السراء، والصبر في الضراء». انتهى مختصرا.

قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**بُلينا بالضَّرّاءِ فصبرنا، وبلينا بالسَّراءِ فلم نَصبِر**»، وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**من وُسِّع عليه في دنياه، فلم يعلم أَنه قد مُكِر به، فهو مخدوع عن عقله**»، والله يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء: ٣٥].[3]

1- «الحسنة والسيئة» (ص 73).

2- هذا سياقه مختصرا، وهو عند البخاري (6377)، ومسلم (589).

3- انظر: «بصائر ذوي التمييز» (2/ 274).

منزلة الصبر من الدين وفوائد الابتلاء للمسلمين

لا يخفى على كل مسلم ما جعل الله لمنزلة الصبر من درجة عَلِيَّة، ولأهله من المِنَح الإلهية، وفي التنزيل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، والبُشرى أنَّ عليهم صلواتٍ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٧]، أي: ثناءٌ وتَنْوِيهٌ بحالِهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفَّقَهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر[1]، وسبب ذلك أنهم سلَّموا لله، وحَبَسوا أنفسهم على قضاء الله، وقالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦].

قال الراغب الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**وليس يريد بالقول اللَّفظَ فقط**، فإن التلفظ بذلك مع الـجَزَع القبيح والسَّخَط للقَضاء ليس يعني شيئاً، وإنما يُريد تَصَوُّرَ ما خُلِقَ الإنسانُ لأجله، والقصدَ له، والاستهانةَ بما يَعرِض في طريق الوُصول، فأمَرَ تعالى ببِشارَة مَن اكتَسب العلوم الحقيقيَّة وتَصوَّرَها، وتَصوَّر بها المَقصَد ووَطَّنَ نفسَه عليه.

فإن قيل: ولِـمَ قلتَ إن الأمر بالصبر يقتضي العلم، وما الصبر من العلم؟

قيل: الصبر على الحقيقة إنما يكون لمن عَرَفَ فضيلةَ مطلوبِه، ولهذا قال الخضر لموسى لما علم أن ليس يعرف مقصده في فعله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾

1- انظر: «تفسير السعدي» (ص 75).

2- «تفسير الراغب الأصفهاني» (1/ 353).

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾[الكهف: ٦٧ - ٦٨]، **فدل أن حقيقةَ تحمل الصبر لابد له من معرفة المقصود به**». انتهى.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «منظومة السير إلى الله»:

صَبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى المَكارِهِ كُلِّهَا شَوْقاً إلى مَا فِيْهِ مِنْ إِحْسَانِ

عِظَمُ الأَجر لَمَن حقَّق عِبادةَ الصبر

ومن الإحسان المترتب على الصبر دخولُ الجنة، كما في قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾[الفرقان: ٧٥]، أي: بما تحمّلوا من الصَّبر في الوصول إلى مرضاة الله.[1]

قال بعضُ السلف: «**جعل الله رأس أمور العباد العقل، ودليلَهم العلم، وسائقَهم العمل، ومقويهم على ذلك الصبر**».[2]

والصبر: هو الحبس، لغةً.

وفي الشرع: حبس النَّفْس على حكم الله.

وحكم الله نوعان: حكم شرعي، وحكم قدري.

والحكم الشرعي أمران: فعل طاعة، وترك معصية.

فيكون الصبر على الحكم الشرعي بحبس النفس على فعل الطاعة وترك المعصية.

وأما الحكم القدري: فالصبر عليه يكون بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن

1- «المفردات في غريب القرآن» (ص 474)، للراغب الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

2- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (38).

التَشَكِّي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.[1]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، **فإذا قام بها العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبا**». انتهى.

فلا ينهض بامتثال المأمورات وترك المنهيات إلاَّ من صَبَر، والصبر خُلُق من الأخلاق التي تَتربَّى وتَنْمو بالمِران والدَّوام، فواجبٌ على المكلَّف أن يجعلَ تَربيةَ نفسِه عليه وتَعويدَها به مِن أكبر همِّه، إذ لا يقوم بالتكاليف الشَّرعية إلا به، **بل ولا يستطيعُ الحياةَ في هذه الدار الدُّنيا الموضوعةِ على المِحنَة والابتلاء إلا إذا تمسك بسببه.**[3]

قال بعض السلف[4]: «**مَن جَزِعَ مِن مصائبِ الدنيا تحَوَّلَت مُصيبتُه في دينه**».

وقال الحسين بن عبد الرحمن: [5]

فلـــــم أر أوفى للـــــبلاء مـــــن التُّـــــقَى ولم أرَ للمكـــروه أشـــفى مـــن الصَّـــبرِ

وروي عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قولُه[6]: «**ألا إنَّ الصبرَ مِن الإيمان بمَنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَ الرأسُ بادَ الجسدُ**»، ثم رَفع صوتَه فقال: «**ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر**

1- انظر: شرح منظومة السير إلى الله والدار الآخرة، للمؤلف عفا الله عنه.

2- «الوابل الصيب» (ص 5).

3- «آثار ابن باديس» (1/ 500).

4- «حلية الأولياء» (9/ 327).

5- «الصبر والثواب عليه» (88).

6- رواه أبو نعيم في «الحلية» (1/ 75)، وابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (8).

له!».

وسبب ذلك -كما قال بعض أهل العلم[1]- راجع إلى أنَّ الصبر يدخل في كل باب، بل في كل مسألة من مسائل الدين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**وإذا تأملت مراتب الكمال المكتَسب في العالم، رأيتها كلها منوطةً بالصبر**، وإذا تأملت النقصان الذي يذم صاحبه عليه، ويدخل تحت قدرته، رأيته كله من عدم الصبر، فالشجاعة والعفة، والجود والإيثار كله صبر ساعة...

وأكثر أسقام البدن والقلب، إنما تنشأ عن عدم الصبر، فما حُفِظَت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر، فهو الفاروق الأكبر، والترياق الأعظم...». انتهى.

وقال الحسن: «**الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه اللهُ إلا لعبد كريم**».[3]

وقال وهب بن منبه: «**ثلاث من كن فيه أصاب البر: سخاوة النفس، والصبر على الأذى، وطيب الكلام**».[4]

1- انظر: «عدة الصابرين» (ص 111).

2- «زاد المعاد» (4/ 305).

3- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (16). وانظر: «عدة الصابرين» (ص 95).

4- رواه ابن أبي الدنيا في «الصبر والثواب عليه» (38).

فوائد الـمِحَن والبلايا

للبلاء فوائدُ تُسلِّي من عَرَفها، ومِنَحٌ تَشرَحُ صَدرَ مَن عَقَلها، جاءت مبثوثةً في نصوص الكتاب والسنة، ومن أحسن من استنبطها العلامة العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في رسالة له نافعة تكلم فيها على فوائد المِحَن والرَّزايا[1]، قال فيها[2]: «**للمصائب والبلايا والمِحَن والرَّزايا فوائدُ تختلفُ باختلافِ رُتَبِ الناس**:

أحدها: معرفة عِزِّ الربوبية وقَهرِها.

والثاني: معرفة ذُلِّ العبودية وكَسرِها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦]، فاعترفوا بأنهم مِلكُه وعَبيده وأنهم راجعون إلى حُكمِه وتدبيره وقضائه وتقديره، لا مَفَرَّ لهم منه، ولا مَحيد لهم عنه.

1- طبعت هذه الرسالة في دار الفكر بعنوان: «**الفتن والبلايا والمحن والرزايا، أو فوائد البلوى والمحن**»، بتحقيق إياد خالد الطبَّاع. ونقل كلامه من الرسالة المذكورة العلامة جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «محاسن التأويل» (1/ 444-449).

وممَّن أحسن في هذا الباب الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العُجاب «زاد المعاد» تحت: «فصل في هديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في علاج حر المصيبة وحزنها»، فقد أتى فيه بروائع الكَلِم ومَتين العِلم.

وفي البا كتب مستقلة، منها: «**تسلية أهل المصائب**»، لشمس الدين المَنْبِجي (المتوفى: 785هـ). انظر ترجمته في «الأعلام» (7/ 41)، للزركلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

2- باختصار وتصرف اقتضاهما المقام، وزيادات أثبتها في أول الأمر في الحاشية، ثم رأيت إدماجها في النص لأهميتها، وهي أحيانا كالشرح لكلام العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والثالثة: الإخلاص لله تعالى إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه، ولا مُعتَمَدَ في كشفها إلا عليه، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾[يونس: ١٠٧].

الرابعة: الإنابة إلى الله تعالى، والإقبال عليه، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾[الزمر: ٨].

الخامسة: التضرع والدعاء لله جَلَّجَلَالُهُ، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام: ٦٣].

السادسة: الحِلم ممن صدرت عنه المصيبة، ويختلف ذلك باختلاف المصائب في صغرها وكبرها، **فالحلم عند أعظم المصائب أفضل من كل حِلم**.

السابعة: العفو عن جانيها، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[الشورى: ٤٠]، والعفو عن أعظمها أفضل من كل عفو.

الثامنة: الصبر عليها، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٦]، وفي الحديث: «**وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»[1].

التاسعة: الفرح بها لأجل فوائدها، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بِالْبَلَاءِ، كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرَّخَاءِ**»[2]. وإنما فرِحوا بها إذ لا وَقْعَ لشِدَّتِها ومَرارَتها بالنسبة إلى

1- رواه البخاري (1469)، ومسلم (1053).

2- رواه أحمد (11893)، وابن ماجه (4024)، وغيرهما، وصححه الألباني في «الصحيحة» (144).

ثَمَرتِها وفائدتِها، كما يَفرَح من عُظَمَت أدْواؤُه بشُرب الأَدوية الحاسِمة لها، مع تَـجَرُّعِه لَمرارَتِها.

العاشرة: الشكر عليها لما تضمنته من فوائدها، كما يشكر المريضُ الطبيبَ القاطعَ لأطرافه، المانعَ من شهواته، لما يتوقع في ذلك من البُرء والشفاء.[1]

الحادية عشرة: تمحيصُها للذنوب والخطايا، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[الشورى: ٣٠]، وفي الحديث: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**».[2]

قلت: ووجه الاستدلال من الآية أن بعض أهل العلم قال في معناها: «هي إخبار من الله تعالى بأن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء وخطاياه، وأن الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة».[3]

قال العلامة ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «ما يكون من باب المصائب والآلام فعلى العبد أن يتناوله على أنه **نعمة من الله تعالى، فيها من الأجر والتمحيص، و بها يحصل الرجوع**

1- تكلمت في «شرح منظومة السير إلى الله لابن سعدي» عن الفرق بين الصبر والرضا والشكر، فأغنى ذلك عن تكراره هنا.

2- رواه البخاري (5641)، ومسلم (2573). و«النَّصَب»: التعب، و«الوَصَب»: المرض.

3- انظر: «المحرر الوجيز» (5/ 37)، لابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

4- انظر: «الآثار» (1/ 338).

والإنابة إلى الله، ويكون منها تربية وتدريب على السلوك اللازم في الحياة الفردية والاجتماعية». انتهى.

الثانية عشرة: رحمةُ أهلِ البلاء ومساعدتُهم على بلواهم. فالناس مُعافى ومُبتلى، فارحموا أهلَ البلاء، واشكُروا اللهَ تعالى على العافية.

الثالثة عشرة: معرفةُ نعمة العافية والشكر عليها. فإن النِّعَم لا تُعرف أقدارُها إلا بعد فَقدها.

الرابعة عشرة: ما أعدَّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثوابِ الآخرة على اختلاف مراتِبَها.

الخامسة عشرة: ما في طَيِّها من الفوائد الخفيَّة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦].

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون. [1]

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم كان في طَيِّ تلك البلية أن أخدَمها هاجرَ، فولدت إسماعيلَ لإبراهيمَ عليهما الصلاة والسلام، فكان من ذرية إسماعيلَ خاتمُ النبيين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. **فأَعْظِمْ بذلك مِن خَيرٍ كان في طَيِّ تلك البَلِيَّة.**

1- «تفسير ابن كثير» (1/ 573).

السادسة عشرة: إنَّ المصائبَ والشدائدَ تمنع من الأَشَر والبَطَر والفَخْر والـخُـيَلاء والتكبُّر والتجبُّر، فإنَّ نمرود لو كان فقيرا سقيما، فاقِدَ السمع والبصر، لما حاجَّ إبراهيمَ في ربه، لكنْ حَمَلَه بَطَرُ المُلك على ذلك. وقد علَّلَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُحاجَّتَه بإتيانه الملك، ولو ابتُلِيَ فرعونُ بمثل ذلك لما قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]، واللهُ يقول: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[التوبة: ٧٤]، وقال: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الشورى: ٢٧]، في آيات كثيرة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**والفَقرُ يَصلُح عليه خَلْق كَثير، والغنى لا يَصلُح عليه إلا أقل منهم**». انتهى.

والفقراء والضعفاء هم الأولياء وأتباع الأنبياء. ولهذه الفوائد الجليلة كان أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

وما أحسن قول ابن مفلح المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**لولا المصائب لبطر العبد وبغى وطغى**، فيحميه بها من ذلك ويطهره مما فيه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه كما قيل:

قَـد يُـنْعِمُ اللهُ بـالبَلْوَى وإنْ عَظُمَـتْ ... ويَبْـتَلي اللهُ بعـضَ القَـومِ بـالنِّعَمِ

1- «الحسنة والسيئة» (ص 73).

2- «الآداب الشرعية» (2/ 191).

واعلم أن مَرارةَ الدنيا حلاوةُ الآخرة، والعكس بالعكس، ولهذا قال: عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ المؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»[1]، وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: « **حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[2]، ومعلوم أن العاقل من احتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد.

وذُلُّ ساعة لعِزِّ الأبد، هذا من لُطف الله به حتى نظر في العواقب والغايات، والناس -إلا من عَصَم اللهُ- آثَروا العاجِل لمشاهدته وضعف الإيمان». انتهى.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «**وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال**، فأكثرُهم آثَرَ الحلاوةَ المُنقَطِعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مَرارَة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذُلَّ ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإنَّ الحاضرَ عنده شهادَةٌ، والمنتظرَ غَيبٌ، والإيمانُ ضعيف، وسُلطانُ الشَّهوة حاكِم، فتَوَلَّدَ من ذلك إيثارُ العاجِلَة، ورَفْضُ الآخِرة، **وهذا حالُ النَّظر الواقِع على ظواهِر الأمور، وأَوائلِها ومبادئها، وأما النَّظرُ الثاقِبُ الذي يَخْرِقُ حُجُبَ العاجِلَة، ويُجاوِزُه إلى العَواقِب والغايات، فله شأن آخر**». انتهى.

فحال الشدة والبلوى مقبلة بالعبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وحال العافية والنَّعماء صارِفَةٌ للعبد عن الله تعالى، ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

1- رواه مسلم (2956). قال ابن رجب في «غاية النفع» (الرسائل، 1/ 223): «لما كانت الدنيا سِجنَ المؤمن وجَنةَ الكافر، فصاحِب السِّجنِ لا يزالُ في بلاء حتى يخرجَ منه، فإذا خَرجَ مِن السِّجنِ أفْضَى إلى الرَّخاء والنَّعيم الدائم، وصاحِبُ الجنَّة إذا خَرَج مِنها وَقعَ في السِّجْنِ الدائم». انتهى.

2- رواه مسلم (2822).

3- «زاد المعاد» (4/ 179). وكلامه قيلها قريب من كلام ابن مفلح رحمهما الله تعالى.

ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[يونس: ١٢]، فلأجل ذلك تقللوا في المآكل والمشارب والمناكح والمجالس والمراكب وغير ذلك، ليكونوا على حالة توجب لهم الرجوع إلى الله تعالى والإقبال عليه.

قلت: فيا عبد الله! اعرِف ربك في الرخاء، يَعرِفْك في الشدة، ولا تكن كهذا الذي لا يشكر عند الرخاء، ويشكو ويجزع إذا نزل البلاء! قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]. [1]

وقد روي عن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قوله: «**يوشك أن يفضي بالصابر البلاء إلى الرخاء، وبالفاجر الرخاء إلى البلاء**».[2]

السابعة عشرة: الرضا الموجِبُ لرِضوان الله تعالى. فإنَّ المصائبَ تَنزل بالبَرِّ والفاجِر، فمَن سَخِطها فله السَّخَطُ وخُسرانُ الدنيا والآخرة، ومَن رَضِيَها فله الرِّضا.

والرِّضا أفضلُ من الجنة وما فيها لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[التوبة: ٧٢]، أي من جَنَّاتِ عَدْنٍ ومساكِنِها الطيِّبة[1]». انتهى كلامه بطوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بتصرف.

1- تكلمت عن هذا بإطالة في كتابي: «شذا العبير بشرح قصيدة ابن تيمية: (أنا الفقير)»، عند ذكر مقام الفقر والـمَسكَنة لله. وانظر: «مشهد الذل والانكسار» في «مدارج السالكين» (1/ 427)، و«اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى» ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (1/ 135)، وله في الباب رسالة بعنوان «الذل والانكسار للعزيز الجبار» ضمن «مجموع الرسائل» (1/ 275).

2- «الصبر والثواب عليه» (74).

=

1- قال ابن سعدي في «تفسيره» (ص 343): «﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، **فرضا رب الأرض والسماوات، أكبر من نعيم الجنات**». انتهى.

سؤال الله العافية وعدم التعرض للبلاء

إنَّ الكلام على الصبر وما جعل الله فيه من العواقب الحسنة إنما يكون لمن نزل به، ولا يعني هذا سؤالَه أو التعرُّضَ له، فإنَّ مَن رُزِقَ العافية في دينه ودنياه فقد سَلِم.

ولما تكلم ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على فوائد البلاء في شرح حديث «احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْك»، بيَّن أن العبدَ لا يتعرض لأسباب البلاء، ومن هنا كان طائفة من السَّلف كابنِ مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيرِه يأمرون من يخاف أن لا يصبِر على ما يخالِف هَواه مما يختار الله له أن يقول في استخارته: «**في عافية**»، فإنَّه قد يختار له البلاء ولا يصبر عليه.[1]

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**فلا ينبغي للعبد أن يتعرَّض للبلاء، ولكن يسأل الله العافية وأن يرزقه الرِّضا بالبلاء إنَّ قُدِّر له البلاء**». انتهى.

ولهذا جاءت الأحاديث الصحاح تأمر بسؤال الله العافيةَ، ومن ذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَلَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ قَطُّ بَعْدَ الْيَقِينِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ**»[3]، وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول في دعائه: «**اللهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ**»[4]، وأرشد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدَ أصحابَه أن يقول: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي**»[5].

1- انظر: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس»، «رسائل ابن رجب» (3/ 148).

2- «مجموع الرسائل» (1/ 176).

3- رواه أحمد في «المسند» (5)، وقال المحققون: إسناده صحيح.

4- رواه أحمد في «المسند» (17628)، وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (2907).

5- رواه مسلم (2697).

ويُروى أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ برجل يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الصَّبْرَ»، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سَأَلْتَ اللهَ البَلاَءَ، فَسَلْهُ العَافِيَةَ**».[1]

ولهذا كان رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتعَوَّذُ مِنْ «**جَهْدِ البَلاَءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ**».[2]

و(**جَهْدُ البَلاء**): ما يُـجهِدُ مِن البَلاء، حتى قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هو قِلَّة المال، وكثرة العِيال».

وقال ابن بطال وغيرُه: (**جَهْدُ البَلاء**): كُلُّ ما أَصابَ المَرءَ مِن شِدَّةٍ ومَشقَّة، وما لا طاقةَ له بِحَمْلِه ولا يَـقْدِرُ على دَفْعِه.

و(**دَرَكُ الشَّقاء**): ما يُدْرِكُ العبدَ مِن الشَّقاءِ في الدنيا والدين.

و(**سوءُ القَضاء**): في الدين والدنيا، والبدن والمال والأهل، وقد يكون ذلك في الخاتمة.

و(**شَمَاتَـةُ الأَعْداء**): فَرَحُ العَدُوِّ بِبَلِيَّة تَنزِلُ بعَدُوِّه.[3]

قلت: ويدخل في هذا سؤال الله المطالب العالية التي قد لا تتحقق إلا بتمحيص الإنسان، وابتلائه بعظيم الامتحان، ومِن هذا قولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا**

1- رواه الترمذي (3527)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (287) (**بَابُ الْحَثِّ عَلَى الدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ**)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (4520). وانظر: «الوابل الصيب» (ص 148).

2- رواه البخاري (6347)، ومسلم (2707).

3- انظر: «شرح ابن بطال على البخاري» (10/ 110)، و«شرح مسلم» (17/ 31)، و«فتح الباري» (11/ 148)، و«الاستذكار» (2/ 524).

يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ».[1]

فلما سأل الله أشرف المنازل، وأعلى المقامات، والنظر إلى وجه رب الأرض والسماوات، عَلِمَ أنَّ ذلك لن يكون إلا بالتمحيص والابتلاء، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرشِدًا أمَّتَه، رأفةً ورَحمَةً بهم: «**فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**».

ومعنى: (**ضَرَّاء مُضِرَّة**): الضُّرُّ الذي لم يصبر عليه.[2]

قال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «قوله: (**مُضِرَّة**) إنما قيَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لأن الضَّرَّاءَ ربما كانت نافعةً آجِلًا أو عاجِلًا، فلا يَلِيقُ الاستعاذَة منها.

وقوله: (**مُضِلَّة**) وصَفَها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لأنَّ مِن الفِتَنِ ما يكونُ مِن أسبابِ الهِداية، وهي بهذا الاعتبار مما لا يُستعاذُ به. والفِتنة هي الامتحان والاختبار». انتهى.

وروي أنَّ رَجُلاً كان يسألُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أن يرزقَه الجهاد والغزو في سبيله، فهتف به هاتف: «**إنك إن غَزَوت، أُسِرْتَ، وإنْ أُسِرْتَ، تَنَصَّرْتَ**».

فليعلم العبدُ أنَّ اختيارَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ له خيرٌ من اختياره لنفسه، فربما سأل سَيلًا فسال به! [1]

1- رواه والنسائي (1305)، وأحمد في «المسند» (18325)، وصححه الألباني في «الكلم الطيب» (106). وشرحه ابن رجب في رسالة مستقلة مطبوعة مع «مجموع رسائله» (1/ 153-187).

2- انظر: «شرح الطيبي على المشكاة» (6/ 1933).

3- «نيل الأوطار» (2/ 343)، بتصرف.

وفي «الصحيحين»[2] أنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**».

وفي الحديث فوائد:

منها: النهي عن تمني لقاء العدو لما فيه العُجب، وما قد يؤول إليه الأمر على وجه لا يصبر معه العبد.

ومنها: الإرشاد إلى سؤال الله العافية، وأهمية ذلك في الرخاء والشدة.

ومنها: الأمر بالصبر إذا نزل البلاء، إذ هو مفتاح الفرج، وانتظار الفرج عبادة، يجد معها العبد من لين القلب، والأنس بالله، وقطع الطمع عن غيره ما يصعب وصفه.

ومن بدائع ابن الجوزي[3]: «فإياكَ إياكَ أن تَسْتَطِيلَ زمانَ البَلاء، وتَضْجَرَ مِن كَثرة الدعاء، **فإنَّك مُبتَلى بالبَلاء، مُتعبَّدٌ بالصَّبر والدُّعاء**، ولا تَيأَس مِن رَوْحِ الله وإنْ طالَ البَلاء». انتهى.

قلت: وفي قول ابن الجوزي: «**ولا تَيأَس مِن رَوْحِ الله وإنْ طالَ البَلاء**» إشارَةٌ إلى أنَّ السُّرورَ يَقْصُرُ به الزَّمَن، والكُروب والهُموم سَبَبٌ لطُولِه. [4]

قال سفيان بن الحارث رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يَرثي رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ:

=

1- انظر: «صيد الخاطر» (ص 83، 171).

2- البخاري (3024)، ومسلم (1742).

3- «صيد الخاطر» (ص 439).

4- انظر: «أضواء البيان» (5/ 279)، للعلامة الأمين الشنقيطي رَحِمَهُٱللَّهُ.

أَرِقْـــتُ فبَـــاتَ لَـــيلِي لا يَـــزُولُ ولَيـــلُ أخِـــي المُصِـــيبةِ فيـــهِ طُـــولُ

وقال الآخر:

فَقِصـــارُهُنَّ مـــعَ الهُمـــوم طَويلَـــةٌ وطِوَالُـــهُنَّ مـــعَ السُّـــرُورِ قِصَـــارُ

وأما عن حقيقة العافية، فقد قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد كثُرت الأحاديثُ في الأمر بسؤال العافية، **وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات** في البدن والباطن، في الدين والدنيا والآخرة.

اللهم إني أسألك العافية العامة لي ولأحبائي ولجميع المسلمين». آمين.

وإذا قيل: **أليس الصبر يكون كذلك على فعل الأوامر وترك النواهي؟** فلماذا لا نُطلق القول بسؤال الله الصبر في الدعاء؟

والجواب –والله أعلم– من أوجه:

أولا: إنَّ الصبر إذا أُطلِقَ عند الناس انصرَفت أذهانُهم إلى الصَّبر على الأقدار المؤلمة.

والوجه الثاني: لو كان المقصودُ بالصبر كلَّ أنواعه –ومنها الصبر على البلاء–، فإذا قلتَ: «اللهم ارزقني الصبر» دخل فيه الصبر على البلاء، وعليه، قد يدخل في النهي الوارد في الحديث. وأما إذا قيَّدت وقلت: «اللهم ارزقني الصبر على فعل الطاعة»، أو «اللهم ارزقني الصبر على ترك المعصية»، جاز هذا الدعاء بهذا القَيد.

1- «شرح مسلم» (12/ 46).

والوجه الثالث: أنَّه إذا نزل البلاء، جاز للمؤمن أن يسأل اللهَ الصبر حينها، كفعل أصحاب طالوت، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٥٠].

المصائب نوعان: مصيبة في الدنيا وأخرى في الدين

تقدم بيان أن المصائب والابتلاء أمر لازم لكل مؤمن، يُمحِّصُ اللهُ به العباد، ويُكفر به الذنوب، ويرفع به الدرجات.

والمصيبة: كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه. يقال: أصابه إصابة ومُصابة ومُصابا. والمصيبة واحدة المصائب، وهي: النكبة ينكبها الإنسان -وإن صغرت-، وتستعمل في الشر.[1]

والمصائب -عافاني الله وإياك- **نوعان**:

- **مصيبة في الدنيا،**
- **ومصيبة في الدين.**

حقيقة مصيبة الدنيا

وهي التي يعنيها العوام إذا أطلقوا لفظ «المصيبة»، فيدخل فيها كل ما يصيب الإنسان في بدنه، وأهله، وماله، وغير ذلك، مما يتعلَّق بهذه الدنيا، ومن أشدِّه قلة ذات اليد وضَعف الحال وأمراض البدن.

وقد تقدم الكلام على فوائد هذه المصائب لمن صبر على قضاء الله، وسلم لمولاه، واستقام على شرع الله، وسنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

1- انظر: «تفسير القرطبي» (2/ 275)، و«تسلية أهل المصائب» (ص 9)، للمَنبجي.

ومصائب الدنيا تابعة للدنيا، حالا ومآلا، فكما أن الدنيا فانية، فكذلك مصائبها وإن طالت فانية، وكما أن الدنيا دار ممر لا مقر، فكذلك مصائبها أبدا لا تستقر، وكما أن الدنيا لا تساوي شيئا إذا قورِنت بالآخرة، فكذلك مصائبها، لأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**مَن تَلَمَّحَ بَحرَ الدنيا**، وعَلِمَ كيف تُتَلَقَّى الأمواجُ، وكيف يُصبَرُ على مُدافَعَة الأيام، **لم يَسْتَهْوِلْ نُزولَ بلاء، ولَم يَفْرَح بِعاجِلِ رَخاء**». انتهى.

قلت: وفي التنزيل: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[الحديد: ٢٣].

ومِن جميل الحِكَم ما رُوي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «مَن اشتاقَ إلى الجنة سَلَا عن الشَّهَوات، ومَن أشفَقَ مِن النار رَجَع عن المُحَرَّمات، **ومَن زَهِدَ في الدنيا تَهاون بالمُصيبات**، ومن ارتَقَب الموت سارَع إلى الخَيرات».[2]

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «وأما مصالحُ الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، **فمن انفرطت عليه مصالحُ دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيَعُ وأضيَعُ**». انتهى.

وفي «نونيَّة القحطاني»:

الدِّينُ رَأْسُ المالِ فاسْتَمْسِك بهِ فَضَيَاعُهُ مِن أَعْظَم الخُسْرانِ

1- «صيد الخاطر» (ص 187).

2- رواه عنه اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح أصول الاعتقاد» (4/ 924).

3- «الجواب الكافي» (ص 169).

وتأمل هذا الحديث العظيم، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ**[1] **فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**». [2]

وفي هذا الحديث فوائدُ:

منها: أنَّ الدنيا يتنعَّم فيها الكافر والمؤمن، لأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وليس من حُرِمها قد هان على الله، ولا مَن أُعطيَها كريم عند الله، بل يُعطيها أعداءَه، ويحفظ اللهُ منها أولياءَه.

ومنها: أنَّ نعيم الدنيا -مهما عَظُم- لا يُساوي شيئا إذا لم تَصحبهُ طاعةُ الله.

ومنها: أنَّ غَمسَةً واحدةً في النار تُنسي كل نعيم في الدنيا.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «هذا وهو شيء يسير، **فكيف بمن يكون مخلداً فيها والعياذ بالله أبد الآبدين؟!**». انتهى.

ومنها: أنَّ غَمسَةً واحدةً في الجنَّة تُنسي كل مصائب الدنيا.

فمـــا هـــي إلا ســـاعةٌ ثـــم تَنْقَضـــي ويـــذهَبُ هـــذا كُلُّـــه ويَـــزُولُ

1- أي: فيُغمَسُ.

2- رواه مسلم (2807).

3- «شرح رياض الصالحين» (3/ 364).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا يجد أهلُ الجنَّةِ مِن أَلَـمِ نَصَبِ الدنيا شيئًا، بل يَنْقَلِبُ راحةً أبدًا.

جميـــعُ آلام لَسْـــع النَّحْـــلِ يُـــذْهِبُهَا ما يَجْتَنـي الـمُـــجْتَنِي مِـن لـذَّةِ العَسَـلِ

من طَمِـعَ في الوُصول إلى المعالي، صَبَرَ على مُواصَلَة نَصَبِ النهار بسهر الليالي. [2]

ومن أراد غدًا قُربَنا، فليَصبِر اليومَ على أَلَـمِ ضَرْبِنا، فما يُحِسُّ بأَلَـمٍ مَن صَدَقَ في حُبِّنَـا.

فلابد من البَلوى والاختبار، ليتبَّين الصادِقُ اليومَ من الكاذِب، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد: ٣١].

مراتب الدنيا لا تُنالُ إلا بالصَّبر على البَلاء في طَلَبِها والمُجاهَدة، فكيفَ مَن أرادَ مَقْعَدَ صِدْقٍ عند مَلِيكٍ مُقْتَدِر؟!». انتهى.

ومنها: أنَّ الدنيا إذا فاتت، فإنَّ في الآخرةِ نعيمًا أكبر يُنسي بؤسَها، وأما مَن ضيَّع الدين، فقد فاتته الآخرة التي لا تُعوَّض، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]، وقد بيَّن اللهُ كَذِبَ هذه الدَّعْوَى بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[الأنعام: ٢٨].

1- «غاية النفع» (الرسائل، 1/ 223)، بتصرف.

2- تكلمت –بفضل الله– عن هذا الأصل (وهو أن دار الراحة لا تُنالُ بالراحة) في «شرح منظومة السير إلى الله»، و«شرح قصيدة ابن تيمية في الفقر إلى الله».

ومنها: أنَّ المصائبَ -مهما عَظُمت- لا تُساوي شيئا إذا دخل العبد الجنَّة، وتفضَّل الله عليه بأعظم مِنَّة.

إذا صـــحَّ منـــك الـــوِدُّ فالكـــلُّ هـــيِّنٌ فكـــلُّ الـــذي فـــوق الـــتراب تـــرابُ[1]

ومنها: الفرق الكبير بين الدنيا التي لم يرضَها الله لأوليائه، والآخرة التي اختارها الله لأصفيائه، وحكم بالعذاب السَّرمَدي فيها لأعدائه.

والدلائل على هذا أكبر من أن تُحصر –سيما في مثل هذه الورقات–، وحسبي ذكر بعض النصوص التي تُوَضِّحُ حقارة الدنيا بالنسبة للآخرة[2]، وإن كان العبدُ لن يَصلَ للآخرة إلا بالعمل والاجتهاد في هذه الدنيا.

نصوص في ذَمِّ الدنيا مقارَنة بالآخرة

قال الله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾[الحديد: ٢٠].

1- قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لابن عباس» (الرسائل، 3/ 142): «**فمن تحقق أن كلَّ مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يُقَدِّمُ طاعةَ من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يُرضي التراب بسخط الملك الوهاب، إن هذا لشيء عُجاب!**». انتهى.

2- المراجع في هذا كثيرة وشهيرة. انظر مثلا: «رياض الصالحين» (1/ 161-168)، للحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جَعَله مُشاهَدا لأولي البصائر، وأنها لَعِبٌ ولَهو تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان...

ثم أخبر أنها زينة زُيِّنت للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون والنفوس استحسانا ومحبة، **ولو باشَرت القُلوبُ معرفةَ حقيقَتِها ومآلِها ومَصيرِها لأَبغضَتها، ولآثَرَت عليها الآخِرة، ولما آثَرَتها على الآجِل الدائم، الذي هو خيرٌ وأَبْقَى**». انتهى.

وفي قصيدة ابن رجب المليحة في «ذم قسوة القلب»[2] قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

معائِبُ هذِه الدنيا كَثيرٌ وأنتَ على مَحَبَّتِها طُبِعْتَا

قال أحد السلف[3]: «**مَن عَرَف الموتَ هانَت عليه مَصائبُ الدنيا وغُمومُها**».

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[فاطر: ٥]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف: ٣٥]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا.

قال بعضهم: يا هذا! الدنيا وراءَك، والآخرة أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة.[4]

1- «عدة الصابرين» (ص 169).

2- «الرسائل» (1/ 268).

3- «حلية الأولياء» (6/ 44).

4- انظر: «موارد الظمآن لدروس الزمان» (4/ 648)، و«إيقاظ أولي الهمم العالية» (ص 15)، لعبد العزيز السلمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأما الأحاديث، فهي أصعب من أن تُحصر في موضع واحد، ومن ذلك قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ**»[1]، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ**»[2]، وفي رواية البخاري: «**إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي المَالِ وَالخَلْقِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَل مِنْهُ**».

قلت: وهذا الكلام خاص بالدنيا الدنيَّة، **وأما الآخرة الغالية، فإنه لا يصلحُ لها إلا أصحاب الهِمم العالية.** [3]

قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك». انتهى.

وهذا بخلاف الأحمق الذي إن كان فوقَك حقرَك، وإن كان دونَك غَمَرك. [5]

ومن الأحاديث قول رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[6].

1- رواه البخاري (6413)، ومسلم (1805).

2- رواه البخاري (6490)، ومسلم (2963).

3- تكلمت على الهمَّة العالية ونماذجَ صالحة منها في كتابي: «سبيل النجاة في فضائل العلم والعمل».

4- «رسائل ابن حزم» (1/ 344).

5- انظر: «روضة العقلاء» (ص 123)، لابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

6- رواه الترمذي (2320)، وابن ماجه (4110)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (686).

قال ابن القيم في «النونية» ناظِمًا هذا المعنى[1]:

لـــو ســـاوَتِ الـــدُّنيا جَنـــاحَ بَعُوضَـــةٍ ... لَـــم يَسْـــقِ مِنهـــا الـــرَّبُّ ذا الكُفْـــرانِ
لكِنَّهـــــا والله أَحقَـــــرُ عِنـــــدَهُ ... مِـــن ذَا الـــجَنَاح القَـــاصِرِ الطَّـــيَرانِ
طُبِعَـــتْ عـــلى كَـــدَرٍ فكيـــفَ تَنالُـــهَا ... صَـــفْوًا أهَـــذا قَـــطُّ في الإمْكـــانِ

وعن الضَّحاك بن سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «**يا ضحَّاكُ! ما طعَامُك؟**». قال: «يا رسولَ الله! اللَّحْمُ واللَّبَنُ». قال: «**ثمَّ يصيرُ إلى ماذا؟**».

قال: «إلى ما قَدْ علِمْتَ». قال: «**فإنَّ الله تعالى ضَرَب ما يَخْرُج مِنِ ابْنِ آدَمَ مَثلاً لِلدنْيا**».[2]

وكفى بهذا زاجِرًا لَمَن عظَّم مصائب الدنيا، ولم يُبال بضياع دينه، فإنَّ الذي فاته منها لا يعدو أن يكون من جنس المَثل المضروب في هذا الحديث! ولا أظن عاقلًا يتأسَّفُ على هذا، فضلاً على إيثارِه على ما عند الله.

الدنيا لا تُذَمُّ بإطلاق

الدنيا عبارة عن كل ما يشغل عن الله قبل الموت، فكلما لك فيه حظ وغرض ونصيب وشهوة ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة، فهي الدنيا.

وليس كل ذلك مذموم، بل المذموم المنهي عن محبته هو كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة.[1]

1- وانظر له: «الفوائد» (ص 42).

2- رواه أحمد في «المسند» (15747)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (3242).

روى ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواضع من كتبه [2] أَنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ رجُلاً يَسُبُّ الدنيا، فَقَالَ لَهُ: «**إنَّها لَدارُ صِدْقٍ لِمَن صَدَّقَها، ودارُ عافِيَةٍ لمنْ فَهِمَ عنها، ودارُ غِنًى لمن تَزَوَّدَ منها**، ومَسْجِدُ أحِبَّاءِ الله ﷻ، ومَهْبِطُ وَحْيِهِ، ومُصَلَّى ملائِكتِه، ومَتْجَرُ أَوْلِيَائِه، اكْتَسَبوا فيها الرَّحْمة، ورَبِحوا فيها الجنَّة، فمَن ذا يَذُمُّ الدنيا، وقد آذنَتْ بِفِراقِها، ونادَتْ بَينها، ونَعَتْ نَفْسَها وأهْلَها، فمَثَّلَت ببلَائِها البَلَاء، وشَوَّقَت بِسُرُورِها إلى السُّرُور، فذَمَّهَا قَوْمٌ عندَ النَّدَامَة، وحَمِدَهَا آخَرُونَ حَدَّثَتْهُم فصَدَّقُوا، وذَكَّرَتْهُمْ فَذَكَرُوا، فَيَا أَيُّهَا الْمُعْتَلُّ بالدنيا، الـمُغْتَرُّ بِغُرُورِها، متى اسْتَهْوَتْكَ الدنيا؟ بل متى غَرَّتْكَ؟ أَلِمَضَاجِعِ آبَائِكَ مِنَ الثَّرَى؟ أَمْ بِمَصَارِعِ أُمَّهَاتِكَ مِنَ الْبِلَى؟ ...» إلى آخر ما قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

=

1- لا يفوتك أيها القارئ الكريم ما ذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامع العلوم والحكم» (2/ 845- 904) في شرح حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ازهَدْ فِي الدُّنيا يُحِبَّكَ الله، وازهَدْ فيمَا في أيدي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ**»، فإنَّ فيه من متين العلم، ولطيف الفوائد، ما يَعِزُّ نظيره.

ومن ذلك تفصيله للقدر المذموم من الدنيا، مدللا على ذلك من النصوص الشرعية، مع ما يُتقنه من تتبع الآثار السلفية.

أسأل الله أن يَجزي له المثوبة، وأن يجمعنا به في دار كرامته، مع نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ. آمين.

2- انظر: «ذم الدنيا» (147)، و«الزهد» (210)، و«إصلاح المال» (108)، وكلها له رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومثل هذه الآثار –كغيرها– أنقلها وأعزوها لأصولها –ما استطعت– بلا حكم عليها، بشرط ألا يكون في معناها ما يُستنكَر، ومن شاء معرفة درجتها من الصحة، فهي منقولة –ولله الحمد– بأسانيدها.

علَّق على هذا الأثر ابن رجب فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1]: «بين أميرُ المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ الدُّنيا لا تُذَمُّ مطلقاً، وأنَّها تُحمدُ بالنِّسبة إلى من تزوَّد منها الأعمال الصالحة، وأنَّ فيها مساجدَ الأنبياءِ، ومهبطَ الوحي، وهي دار التِّجارة للمؤمنين، اكتسبوا فيها الرَّحمة، وربحوا بها الجَنَّة، فهي نِعمَ الدَّارُ لمن كانت هذه صفَته. وأمَّا ما ذكر من أنَّها تَغُرُّ وتخدَعُ، فإنَّها تُنادي بمواعظها، وتنصحُ بعبرها، وتُبدي عيوبَها بما تُري أهلها من مصارع الهلكى، وتقلُّبِ الأحوال مِنَ الصِّحَّة إلى السَّقم، ومِنَ الشَّبيبة إلى الهرم، ومن الغنى إلى الفقر، ومن العِزِّ إلى الذُّلِّ، لكنَّ مُحِبَّها قد أصمَّه وأعماه حبُّها، فهو لا يسمع نداءها». انتهى.

نَقِمْتَ على الدنيا ولا ذَنْبَ أسْلَفَتْ ... إليكَ فأنتَ الظالمُ المُتكذِّبُ
وهَبْهَا فَتاةً هلْ عليها جِنَايَةٌ ... بِمَنْ هُوَ صَبٌّ في هَوَاهَا مُعَذَّبُ

القَدْرُ المَذمومُ مِن الدنيا

وإذا سمعت بذم الدنيا، فاعلم أنه ليس راجعًا إلى زَمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى قيام الساعة، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعلهُما ﴿خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان: ٦٢].

وليس الذم راجعًا إلى مكانها وهو الأرض، ولا إلى ما أنبته الله فيها مِن الشجر والزرع.

1- «جامع العلوم والحكم» (2/ 880).

فإن ذلك كلَّه مِن نِعَم الله على عباده لما لهُم فيه من المنافعِ والمصالحِ والاعتبار والاستدلالِ بذلك على وحدانيَّة الله وقدرته وعظمته وحكمته ورحمته بعباده.

قال جل وعلا: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾[البقرة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠].

وإنما المذموم أفعالُ بني آدم: من المعاصي الكبائر والصغائر، كالشرك، وترك الصلاة، وترك الزكاة، والكذب على الله ورسوله، أو كراهة ما أنزل الله، أو قتل نفس بغير حق، أو ظلم، أو شهادة زور، أو لهو واستعمال آلاته، ونحو ذلك، مما يُنافي التوحيد أصالةً، أو يُنافي كمالَه الواجبَ أو المُستحب. [1]

قلت: وجِماع هذا كلِّه قولُ رسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلاَّ ذِكْرُ الله، ومَا وَالاَهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ**». [2]

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ[3]: «**فكُلُّ عَمَلٍ يعمَلُه العَبدُ ولا يكونُ طاعةً لله، وعِبادَةً، وعملاً صالحًا، فهو باطل**، فإنَّ الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ما كان لله، وإنْ نالَ بذلك العَمَلِ رِئَاسَةً ومالاً، فغايةُ الـمُتَـرَئِّسِ أنْ يكونَ كفِرعَونَ، وغايةُ

1- انظر: «إيقاظ أولي الهمم العالية» (ص 24).

2- رواه الترمذي (2322)، وابن ماجه (4112)، وحسنه ابن القيم في «عدة الصابرين» (ص 169)، والألباني في «صحيح الترغيب» (3244).

3- «مختصر الفتاوى المصرية» (1/ 182). وانظر: «مفتاح دار السعادة» (1/ 70).

الـمُـتَمَوِّلِ أنْ يكونَ كقَارُونَ. وقد ذَكَر اللهُ في «سورة القصص» مِن قِصَّةِ فرعونَ وقارونَ ما فيه عِبْرَةٌ لأُولي الأَلْباب». انتهى.

حقيقة مصيبة الدين

النوع الثاني من المصائب هو المصيبة في الدين، وهي راجعة إلى أمرين:

مصيبة من جهة الشهوات،

أو مصيبة من جهة الشبهات.

فمن أُصيب بأحدهما أو كليهما فقد هَلك، ولن ينفعه ما أصاب من الدنيا أو مَلَك، وإن كان جنس الشبهة أعظم من جنس الشهوة.

ومَن سَلِم منهما فقد سَلم في الدارين، وحازَ الفوز بلا شك ولا مَين، وكان قلبه سليما، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. والسليم هنا هو الذي سَلِمَ من مَرَضي الشهوة والشبهة، ويدخل فيه الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وأقبح العيوب.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وجِماعُ ذلك هو سلامة[2] القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك». انتهى.

1- انظر: «الفتاوى» (10/ 337)، بتصرف. وتفصيل هذه العبارة عند ابن القيم في مواضع من كتبه منها: أول «إغاثة اللهفان» (1/ 7)، و«الجواب الكافي» (ص 122) ...، ونحوه في «رسائل ابن رجب» (3/ 65).

2- وهذا هو اللفظ الذي اخترته في هذه الرسالة: «**تسلية المؤمنين بهوان مصيبة الدنيا عند سلامة الدين**».

ولهذا، كانت الإمامة في الدين لا تُنال إلا بالسلامة من أدران الشهوة، وشكوك الشبهة، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤].

فبالصبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدين، إذْ في الجمع بينهما سَعَادَةُ العَبْدِ، وبفقدهما يفقد العبد سعادته، فإنَّ القلبَ تَطرُقه طَوارِقُ الشَّهَوات المُخَالفَة لأمر الله، وطَوارِقُ الشُّبُهَات المُخَالفَة لخبَره، **فبالصبر يدْفع الشَّهَوَات، وباليقين يدْفع الشُّبُهَات**، فَإن الشَّهْوَة والشبهةَ مُضادَّتان للدِّين من كل وَجه، فلا يَنْجُو مِن عَذاب الله إِلَّا مَن دَفَع شهواتِه بِالصَّبرِ وشُبُهاتِه بِاليَقِين، ولهذا أَخبَر سبحانه عن حُبوط أعمال أهلِ الشَّهَوَات والشُّبُهات، فقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾[التوبة: ٦٩].

فهذا الِاسْتِمتَاعُ بالـخَلاقِ هو استمتاعُهم بِنَصِيبِهم مِن الشَّهَوَات، ثمَّ قَالَ: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾، وهذا هو الـخَوْضُ بالباطل في دينِ الله، وهو خَوْضُ أهلِ الشُّبُهَات، ثمَّ قال: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[التوبة: ٦٩]، فعَلَّق سبحانه حُبوطَ الأعْمالِ والخُسران بِاتِّباعِ

الشَّهَوَات الَّذِي هُوَ الِاسْتِمْتَاعُ بالـخَلاق، وباتباع الشُّبُهَات الَّذِي هو الْخَوْضُ بِالْبَاطِلِ.[1]

ونحوُه قول الله جَلَّجَلَالُهُ مثنيًا على أنبيائه: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[ص: ٤٥]، فالأيدى: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله.[2]

ولا سبيل لتحصيل السلامة من الشهوة والشبهة إلا بالعلم النافع الذي يتبعه عمل صالح، ولهذا قال العلامة ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مطلع «منظومته في القواعد»:

اعلَـــم هُـــديتَ أنَّ أفضـــلَ المِـــنَنْ علـــمٌ يُزيـــلُ الشَّـــكَّ عنـــكَ والـــدَّرَنْ

فالشك: تورِثُه الشبهات، والدَّرَنُ أي: الوَسَخ: تورِثُه الشهوات.

ومصائب الشهوات والشبهات هي الآفة الكبرى، والرَّزيَّة العُظمى، لأنَّها تُصيبُ المَرءَ في دينه الذي هو أغلى ما يَملِك.

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «المصائب تتفاوت، فأعظمها المصيبة في الدين، نعوذ بالله من ذلك، فإنها أعظم من كل مصيبة يصاب بها الإنسان». انتهى.

والأمراض –كالمصائب– نوعان أيضا:

أمراض مادية،

1- «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص 16)، بتصرف.

2- انظر: «إغاثة اللهفان» (2/ 167).

3- «غذاء الألباب» (2/ 334).

وأمراض روحية.

وهذه الأمراض – أي: الروحية- هي التي بُعِثَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعِلاجِها بالأساس، **وأما طب الأبدان**: فجاء من تكميل شريعته ومقصودا لغيره بحيث إنما يستعمل عند الحاجة إليه، فإذا قدر على الاستغناء عنه كان صَرفُ الهِمَمِ والقِوى إلى علاج القلوب والأرواح، وحفظ صحتها، ودفع أسقامها، وحميتها مما يفسدها هو المقصود بالقصد الأول، **وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدا، وهي مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة.** [1]

قال السفاريني رَحِمَهُٱللَّهُ [2]: «ثم بعد المصيبة في الدين المصيبة في النفس، ثم في الأهل، وهي مقاربة المصيبة في النفس، ثم المصيبة في المال [3]، وهذه كالتي قبلها تتفاوت بحسب فخامة المصاب فيه وحقارته، فأعظمُها أَنفَسُها، إلى أن تَصِل إلى شِسْع النَّعل[4]، والشَّوكَة، فإنها في غايةُ الـحَقارة، فإنَّ حَرَّ المصيبة تَنال من القلب بقَدْر ما فَقَد وتَألَّم، وشِسْعُ النَّعل في غايةِ الخِسَّة». انتهى.

1- انظر: «زاد المعاد» (4/ 22).

2- «غذاء الألباب» (2/ 334).

3- قلت: وكأنَّ السفاريني –تَبعًا للمَنبِجي- رتَّب خطر المصائب بحسب مقاصد الشريعة الكبرى، التي تسمى المقاصد الضرورية، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل (أو العرض)، والمال.

وقد تكلَّمت عنها، وعن أدلتها، وترتيبها من جهة الأهمية، في كتابي: «مقصد حفظ النسل».

4- وهو ما يُمسِك النَّعْلَ بأصابع القدَم.

يُوضِّحُه قولُ المَنبِجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1]: «**أما المال فيُخْلِفُه اللهُ تعالى، وهو فِداءُ الأَنفُس، والنَّفْسُ فِداءُ الدِّين، والدِّين لا فِداءَ له**». انتهى.

أعظم المصائب: مصيبة الدين

تقدَّم في الفصل الذي مضى بيان عِظَم مصيبة الدين بالنسبة لِمَحَن الدنيا –وإن جلَّت–، إذْ المصيبةَ في الدين هي نِهايةُ الخُسران الذي لا رِبحَ معه، والحِرمان الذي لا طمع معه. [2]

وسأذكر في هذا الفصل بعض الدلائل على هذا من نصوص الوَحيين وكلام أهل العلم رحمهم الله أحياءً وأمواتا.

قال الله جَلَّجَلَالُهُ في مُحكم تنزيله مبيِّنًا عقوبةَ المُعْرِضين عن التحاكُم إليه، الراضين بحكم غيره مِن الخَلق: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾[النساء: ٦٢]، والمصيبة هنا فضيحتهم إذا أُنزل القرآن بحالهم، **ولا ريب أن هذا أعظمُ المصيبة والإضرار**، فالمصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، **أعظمُها مصائب القلب والدين**، فيرى المعروفَ منكرًا، والهدى ضلالاً، والرشاد غيًّا، والحق باطلاً، والصلاح فسادًا، وهذا

1- «تسلية أهل المصائب» (ص 19).

2- انظر: «تسلية أهل المصائب» (ص 17).

من المصيبة التي أصيب بها في قلبه، وهو الطبع الذي أوجبه مخالفةُ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وتحكيمُ غيره.[1]

آثار الذنوب كثيرة وأعظمها العقاب في الدين

ويَدخُل في هذا كلُّ النصوص التي جاء فيها عقاب من خالف أمرَ الله عقابا دينيًّا، ومن ذلك:[2]

فساد القلب، والطبع عليه،

الدخول تحت لعنة الله ولعنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ،

تضعف القلب، وتضعف فيه تعظيم الرب سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ،

تلقي الرعب والخوف في القلب،

تعمي القلب والبصيرة،

توجب القطيعة بين العبد وربه،

تُنسي العبد ربه ونفسه،

1- انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص 483)، ونَسبه لابن القيم. ولكنني لم أجده بهذه الصيغة فيما وقفت عليه من كتبه، مع تكرار البحث في مجموع مؤلفاته في «المكتبة الشاملة».

وعزاه محقق الكتاب (ط. دار الصميعي) إلى «مختصر الصواعق» (ص 451)، و«مدارج السالكين» (1/ 353)، بنحوه.

2- انظر: «الجواب الكافي» لابن القيم، إذْ يُعتبر مِن أحسن من صنَّف في آثار الذنوب على أصحابها في المتأخرين رَحِمَهُٱللَّهُ.

تورِثُ غيرَها من المعاصي والآثام، لأنَّ الذنوب مواريث... إلى آخر تلك الآثار السيئة الموجبة للهلاك في الدنيا، والخسران في الآخرة.

قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**واللهُ تعالى يعاقِب على الذنب بأحد ثلاثة أشياء:**

أحدها: المؤلمات كالنار وغيرها، وهذا هو الأمر الغالب في ذلك.

وثانيها: تيسير المعصية في شيء آخر فيجتمع على العاصي عقوبتان، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[الليل: ٨ - ٩]، فجعل العُسرى مُسَبَّبةً عن المعاصي المتقدمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾[محمد: ٢٥ - ٢٦] الآية، فجعل سبحانه الرِّدَّة مُسَبَّبةً عن المعصية المذكورة، لأن قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الردة، وقوله ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ قالوا: الباء سببية.

وثالثها: تفويت الطاعات لقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾[الأعراف: ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[المائدة: ١٠٨]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الأنعام: ٢١]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على سَلب الفلاح والخير بسبب الأوصاف المذمومة المذكورة في تلك الآيات».

1- «الفروق» (2/ 146)، باختصار.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنَّ اللهَ سبحانه يُثِيبُ بأحد ثلاثة أشياء:**

أحدها: الملذات كما في الجنة.

وثانيها: تيسير الطاعات.

وثالثها: تعسير المعاصي.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفَواتُ الطاعة مصيبتُها أعظمُ المصائب**». انتهى.

ولقد أحسن شيخُه العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال[1]: «**وكفى بالغفلة عن الله عِقابا**». انتهى.

وذكر أهل العلم أنَّ من مقاصد «سورة التِّين» ذِكرَ **قيمة الانسان وشرَفِه بدِينه، وسُفُوله وهَوانه بتَخَلِّيه عنه**، لذا أقسَمَ بأماكن نُزولِ الوحي.[2]

وهذا فيه بيان أنَّ الإنسان لا قيمة له بلا دين، إذْ من أجله خُلِق، وعليه يُحاسب، وبه يتَفاضَلُ الـخَلق في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[الحجرات: ١٣].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «**من كان الله كنزَه، فقد بالغِنَى الأكبر**». انتهى.

1- «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (2/ 226).

2- «التفسير المختصر» (ص 597).

3- «الرسائل» (1/ 338).

سلامة دينك أهم من كل شيء تملكه، من مال، أو منصب، أو أهل، بل أهم من بقائك على قيد الحياة، ألا ترى قولَ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُون**».[1]

1- رواه أحمد (22109)، والترمذي (3233)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (408). وشرح ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ هذا الحديث في رسالة بعنوان: «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى». انظر: «رسائل ابن رجب» (4/ 3-90).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنِ الْتَمَس رِضا الله بِسَخَط الناسِ، رضيَ الله عنه وأرضى عنهُ الناسَ، ومَنِ التَمَس رِضا الناسِ بِسَخَطِ الله، سخط الله عليه وأَسْخَطَ عليه الناسَ**».[1]

قال العلامة سليمان بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «وفي الحديث عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على رضى الله، **وأن العقوبة قد تكون في الدين**، عِياذًا بالله من ذلك، **فإن المصيبة في الأديان أعظم من المصيبة في الأموال والأبدان**.

وفيه: شدة الخوف على عقوبات الذنوب، لا سيما في الدين، فإن كثيرًا من الناس يفعل المعاصي ويستهين ولا يرى أثرًا لعقوبتها، ولا يدري المسكينُ بماذا أُصيب، **فقد تكون عقوبته في قلبه**، كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة: ٧٧].

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك». انتهى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «ما ضُرِبَ عَبدٌ بعقُوبة أعظَمَ مِن قَسوة القَلب». انتهى.

فمهما قست الحياة، فإن قساوة القلب من أعظم المصيبات، ولهذا جعلها الله عقوبة لأعدائه فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[المائدة:

1- رواه ابن حبان في «صحيحه» (276)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (2250).

2- «تيسير العزيز الحميد» (426).

3- «الفوائد» (ص 97). ولابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ رسالة نافعة بعنوان: «ذم قسوة القلب».

١٣]، أي: غليظة، يابسةً عن الإيمان بي، والتوفيق لطاعتي، لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبها تشويق، ولا يزعجها تخويف، **وهذا من أعظم العقوبات على العبد،** أن يكون القلب بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى والخير إلا شرا.[1]

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ومهما أُصِيبَ المؤمنُ في شيء من دنياه، فإن ذلك ليس بشيء عند سلامة دينه، الذي هو عِصْمَةُ أمره في دنياه وأخراه». انتهى.

وما أجملَ قولَ البُستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونية الحِكَم»:

وكُلُّ كَسْرٍ فإنَّ اللهَ يَجْبُرُهُ ... وما لِكَسْرِ قَناةِ الدِّينِ جُبْرانُ

وقد أوضَح هذا المعنى القاضي شُرَيح رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3] لما قال: «**إني لأُصابُ المصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات:**

أحمد إذ لم يكن أعظم منها،

وأحمد إذ رزقني الصبر عليها،

وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب،

وأحمد إذ لم يجعلها في ديني».

1- انظر: «تفسير السعدي» (ص 225)، وذكر الطبري قولا آخر في «جامع البيان» (10/ 127).

2- «الضياء اللامع» (ص 118).

3- «سير أعلام النبلاء» (4/ 105)، للذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مُصـــيبةُ الـــدينِ أقـــوى مِـــن مُصيـــبَتِنا ... في الأهـــلِ والـــنَّفسِ والأمـــوالِ والوَلَـــدِ

فالكُـــلُّ يَفْـــنَى ولا تَفْـــنَى عَـــواقِبُـــهُ ... والـــدينُ إنْ ضـــاعَ فالخُـــسْرانُ للأَبَـــدِ[1]

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**والعقوبة أنواع كثيرة:**

منها: ما يتعلق بالدين، وهي أشدها، لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان، أما هذه، فلا يتنبه لها إلا من وفقه الله، وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي، فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾[المائدة: ٤٩].

ومنها: العقوبة بالنفس، وذلك كالأمراض العضوية والنفسية.

ومنها: العقوبة بالأهل، كفقدانهم، أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال، كنقصه أو تلفه وغير ذلك» انتهى.

ولذا قيل: [3]

أبُنَـــيَّ إنَّ مِـــن الرِّجـــالِ بَهيمَـــةً ... في صُـــورَةِ الرَّجُـــلِ السَّـــمِيعِ الـــمُبْصِرِ

فَطِـــنٌ بِكُـــلِّ مُصِـــيبةٍ في مـــالِهِ ... وإذا يُصـــابُ بِدينِـــهِ لم يَشْـــعُرِ

1- من شعر شيخنا د. بدر بن علي العتيبي وفقه الله، وكان قد نشر هذه الأبيات في حسابه على «تويتر».

2- «القول المفيد» (2/ 117).

3- انظر: «روضة العقلاء» (ص 122)، و«بهجة المجالس» (ص 169). ونسبها الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تاريخ بغداد» (18/ 90) إلى ابن بطة العكبري.

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: « فإذا رأيت إنسانا لا يبالي بما أصابه في دينه من ارتكاب الذنوب والخطايا وفَوات الجمعة والجماعة وأوقات الطاعات **فاعلم أنه ميت لا يحس بألم المصيبة،** ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[الروم: ٥٢]». انتهى.

قلت: وهؤلاء داخلون في قول الله جلَّ شأنه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[الروم: ٧].

قال ابن خالَوَيهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ما كان أعرَفَهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي عن العلم بها والعمل لها ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾». انتهى.

فإنَّ النفوس إذا لم تتوقع حياةَ الآخرة ودوامَها كانت آلامُ الدنيا ومتاعبُها لا تُطاق، ولا تجد لاحتمالها سبيلا، لأنَّها ما قَبِلت تلك الآلام واحتملَتها إلا لأنها تُوقِنُ بسَعادةٍ أخرى وراء ما تُقَاسي من المتاعب في هذه الحياة.[3]

قلت: وفي الحديث: «**إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ كُلَّ عَالِمٍ بالدُّنيا جَاهِلٍ بالآخِرَة**».[4]

قال بعض الحكماء: «**مَن تهاوَن بالدينِ هان، ومَن غالَب الحقَّ لان**».[5]

وروي في الحديث: «**وَإِنَّ الْـمَسْلُوبَ مَنْ سُلب دِينَهُ**».[6]

1- «غذاء الألباب» (2/ 334).

2- نقلا عن «تفسير القرطبي» (14/ 8).

3- انظر: «تفسير المراغي» (21/ 29).

4- «صحيح الجامع» (1879). وانظر: «الصحيحة» (195)، وكلام الألباني على معنى الحديث.

5- «أدب الدنيا والدين» (ص 103).

6- وإسناده ضعيف. انظر: «المطالب العالية» (3134).

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ متكلّمًا عن الذي لا يُبالي بنُقصان دينه وعباداته[1]: «ثم لعله (أي: هذا المُقَصِّر) لا يفطن لشأنه، **ولا يشعر بخُسرانه، وقد خَسِر الدنيا والآخرة، ويَفطِنُ لليسير من ماله إن وَهَى واختل**». انتهى.

أَرى رِجـالاً بـأَدْنى الـدينِ قـدْ قَـنَـعُوا ولاَ أراهُـمْ رضُـوا في العَـيشِ بالـدُّونِ

فاسـتغنِ بـالله عـنْ دنيـا الملـوكِ كـمَا اسـتغنَى الملـوكُ بـدنياهُمْ عـنِ الـدينِ

وروي أنَّ العلاءَ الحضرميَّ وفد على منذر بن ساوي، فقال له: «يا منذر! **إنك عظيمُ العقل في الدنيا، فلا تَصْغَرَنَّ عن الآخرة**».[2]

شرح حديث: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا»

بعد هذا البيان يَظهرُ لنا جليًّا معنى قولِ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ في دعائه الجامع الَّذي كان قلَّما يقومُ مِن مَجلِسٍ حتى يدعوَ به، وهو قولُه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلاَ تَجْعَلْ**

1- نفس المصدر (ص 103).

2- انظر: «الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ» (5/ 225).

مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلاَ تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا».[1]

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «**(ولا تجعل مصيبتنا في ديننا)**: ولا تصبنا بما ينقص ديننا مِن أكل الحرام واعتقاد سوء، أو فَتْرَةٍ في العِبادة. وقوله: **(ولا تجعل الدنيا أكبر همنا)**: **فيه أن قليلاً من الهم لابد منه في أمر المعاش الـمُرَخَّص، بل مُسْتَحَب**». انتهى.

وقال القاري: «**(ولا مبلغ علمنا)** أي: غايةَ عِلمنا، فلا نعلم ولا نتفكر إلا في أمور الدنيا، بل اجعلنا متفكرين في أحوال الآخرة، متفحصين من العلوم التي تتعلق بالله تعالى وبالدار الآخرة».[3]

قلت: وفي هذا الحديث فوائد:

منها: أنَّ اليقين سبب في تهوين المصائب، ومن ذلك معرفة أنَّه لا مَرَدَّ لقضاء الله، ولا مُعقِّبَ لحُكمِه، وأنه لا يصيب العبد إلا ما كتب الله عليه، وأن ما قدرَّه الله لا يخلو مِن حِكمة ومصلحة، كما مرَّ بيانُه بالتفصيل.

ومنها: أنَّ مصيبة الدين هي البلية الكبرى، والرزيَّة العُظمى، وهي أعظم المصيبتين، وأشد النبكتين، وهذا لُبُّ هذه الرسالة.

1- رواه الترمذي (3502)، والحاكم في «المستدرك» (1934)، بلفظ قريب، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (1268).

2- «شرح المشكاة» (6/ 1928)، بتصرف يسير.

3- «مرقاة المفاتيح» (5/ 1728)، بتصرف يسير.

ومنها: أنَّ الآخرة هي هَمُّ المؤمن الأعظم، ومطلبه الأكرم، بخلاف مَن جعل الدنيا قِبلةَ فؤادِه، ولم يُبالِ بآخرتِه ومَعادِه.

قال شيخنا عبد الله العنقري -نفع الله به-[1]: «مصيبة الدين أشد ما يُصابُ به العبد، **ومِن دلائلها أنْ تكونَ الدنيا أكبرَ هَمِّه، فمهما أصيب دينُه لم يُبالِ**». انتهى.

مِـــن كُـــلِّ شيءٍ إذا ضَـــيَّعْتَهُ عِـــوَضٌ ومَـــا مِـــن اللهِ إنْ ضَـــيَّعْتَهُ عِـــوَضُ

قال بعضهم: «لكل أحد في الله عوض من كل أحد، وليس لأحد من الله عوض بأحد».[2]

ومنها: أنَّ مصيبة الدين، والانشغال بالدنيا عن طاعة رب العلمين، سبب لتسليط الأعداء علينا من الداخل والخارج.[3]

1- من تغريدة له، على حسابه في «تويتر».

2- «الآداب الشرعية» (2/ 178).

3- وقد فصَّلت الكلام على آثار الذنوب على العباد، وأنها سبب في فساد أحوال البلاد في كتابي: «واسع المنة» تحت عنوان: «صَلاحُ الرَّاعي من صَلاحِ الرَّعيَّة».

أعظم المصائب في الدنيا: موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إنَّ مِن أعظم المصائب التي حلَّت بهذه الأمة موتُ نبيِّها محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ المُصابُ به أعظَمُ مُصاب، وفَقدُهُ أشدُّ على كُلِّ مسلمٍ مِن فَقد الولَد والوالِد وسائر الأحباب، وكيف لا وقد تأثَّرت بفراقه حتى الأخشاب! [1] اللهم صلِّ وسَلِّم وبارِك عليه.

قال أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ [2]: «ونِعْمَ العَزاءُ فِيه لأُمَّتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما أُصِيبَ المسلمون بعدَه بِمِثلِ المُصيبة به، وفيه العَزاءُ والسَّلْوَى، وأيُّ مُصيبةٍ أعظَمُ مِن مُصيبةِ مَن انقطَعَ بمَوتِه وَحْيُ السَّماء، ومن لا عِوَضَ مِنهُ رحمةً للمؤمنين، وقَضاءً على الكافرين والمنافقين، ونَهْجًا للدِّين». انتهى.

وصدَقَ حسَّانُ بنُ ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وما فَقَدَ الماضُونَ مِثلَ مُحَمَّدٍ ... ولا مِثْلُهُ حتى القِيامةِ يُفقَدُ

1- أُشيرُ إلى الحديث المشهور في قصَّة حَنين الجذع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد روى البخاري (3583) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ المِنْبَرَ تَحَوَّلَ إِلَيْهِ فَحَنَّ الجِذْعُ فَأَتَاهُ فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ». وعند ابن ماجه (1415): «فَاحْتَضَنَهُ، فَسَكَنَ»، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وروى ابن حبان هذا الحديث في «صحيحه» (6507) ثم ذكر أنَّ الحسنَ كان إذا حدَّثَ بهذا الحديث بَكَى، ثم قال: «**يا عِبادَ الله الخَشَبةُ تَحِنُّ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَوقًا إليه لـمَكانِه مِن الله، فأنتم أحَقُّ أن تشتاقوا إلى لِقائِه**»!

2- «الاستذكار» (3/ 80).

فعن ابن عباس وسابط الجُمَحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أصابَ أحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي فإنَّها مِنْ أعْظَمِ المَصائِبِ**».[1]

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «وصدق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنَّ المُصيبةَ به أعظَمُ من كل مُصيبةٍ يُصاب بها المسلمُ بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي، وماتت النبوة، وكان أوَّلُ ظُهور الشَّر بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أوَّلُ انقطاعِ الخير وأوَّلُ نُـقصانِه».

ثم نقل أبيات أبي العتاهية رَحِمَهُ اللَّهُ:

اصـــبِر لِكُـــلِّ مُصيبَـــةٍ وتَـــجَلَّدِ ... واعلَـــم بـــأنَّ الـــمَرءَ غَـــيرُ مُـخَـــلَّدِ
أو مـــا تَـــرى أنَّ الـــمَصائِبَ جَـمَّـــةٌ ... وتَـــرى الـمَـنِيَّـــةَ للعِبـــادِ بِمَرْصَـــدِ
مَـن لـــم يُصَـبْ مِـــمَّن تَـرى بِمُصِيبَـــةٍ؟ ... هـــذا سَـــبِيلٌ لســـتَ فيـــهِ بِأَوْحَـــدِ
وإذا ذَكَـــرْتَ مُـحَـــمَّدًا ومُصَابَـــهُ ... فاجعَـــلْ مُصابَـــكَ بـــالنَّبِيِّ مُـحَـــمَّدِ

ثم ساق بسنده إلى ابن القاسم بن محمد أنه قال: كان أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا عزَّى عن ميت قال لوليه: «ليس مع العَزاء مُصيبَـةٌ، ولا مع الـجَزَع فائدة، والموتُ أهْوَنُ ما بعدَه وأشَدُّ ما قَبله؛ **اذكُروا فَـقْد نَبِيِّـكُم** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **تَـهُونُ عِندَكم مُصِيبتَـكُم**، وأَعظَمَ أَجْرَكُم». انتهى.

وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: «لـمَّـا كَانَ اليَومُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، **فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الْأَيْدِيَ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا**».[1]

1- رواه الدارمي (85)، وابن سعد في «الطبقات» (2/ 210)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (1106).

2- «التمهيد» (19/ 322، وما بعدها)، مختصرا.

ومِن شعر أَبِي سُفْيَانَ بْنِ الحارِث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرْثِي رَسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لقد عَظُمَت مُصِيبَتُنا وجَلَّتْ ... عَشِيَّةَ قِيلَ قَدْ قُبِضَ الرَّسولُ

وأَضْحَتْ أَرضُنَا مِمَّا عَراها ... تَكادُ بِنَا جَوانِبُها تَمِيلُ

فَقَدْنا الوَحيَ والتَّنْزيلَ فِينَا ... يَرُوحُ بِه ويَغْدُو جِبرائِيلُ

وذاكَ أَحَقُّ ما سالَتْ عليهِ ... نُفُوسُ النَّاسِ أو كادَت تَسِيلُ

قال السفاريني رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «**وهذه المصيبة في نفس الأمر مِن أعظَمِ المَصائبِ في الدين**». انتهى.[3]

قلت: **فمن نظر إلى هذه المصيبة الكُبرى هانَت عليه أخواتُها الصغرى**، ولتَعلمَ ذلك: تَخيَّل لحظَةً أنه قد يُعرَضُ عليك رَفعُ ما بك مِن بَلاء على أن يُصابُ رسول الله بشوكَةٍ –لو كان حيًّا– عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ! لا أظنُّ مُسلِمًا يَرضَى بأدنى مِن هذا!

فهذه القصَّة التي حَصَلَت لصحابي جليل وهو خُبَيب بن عَديٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُعطيكَ فِكرةً عمليَّةً وتطبيقًا واقعيًّا لمعنى هذا الحديث.

وتذكَّرْ –رعاك الله– أبا بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين وُطِئَ في مكة يومًا بعد إسلامه، حتَّى شارَف على الهَلاك، ولم يَكُن له هَمٌّ إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يقول: «**ماذا فعل رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟».

=

1- رواه ابن ماجه (1631)، وصححه الألباني في «مختصر الشمائل المحمدية» (329).

2- «غذاء الألباب» (2/ 334).

3- انظر في هذا الموضوع خاصة: «مصيبة موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأثرها في حياة الأمة»، لحسين العوايشة.

ونحوه ما رُوي مُرسلا في قصَّة المرأة الأنصارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا التي قُتِل أبوها وأخوها وزوجُها يومَ أُحُد، وهي –مع هذه المصائب في أقرب الناس لها– تقول: «**ما فعل رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟»، فلما عَلِمت أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بخير، قالت: «**كُلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَل**»، أي: تَهُون. [1]

1- انظر نماذجَ من نوادر الحب والتفاني الذي كان من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ تُجاه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كتاب «ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين؟» (ص 167–170)، للندوي رَحِمَهُٱللَّهُ.

البكاء على ضياع الدين أعظم من ضياع الطين

وفي خِتامِ هذه الرسالة أحْبَبتُ أن أُنبِّه إلى ما هو داخل فيما سَبَق مِن كلام، وحاصله أنَّ في المسلمين مَن يُكثِرُ البكاء على ما ضاع مِن مُلك المُسلمين، وسقوط دولتِهم، وانكسار شَوكَتهم، وهذا حقٌّ ما لَم يُجاوِز حدَّه.

ومُجاوَزَةُ حدِّه قد تكون بأمرين:

الأول: ببثِّ الإحباطِ في المسلمين، وتوْهينِ صفِّهم، والفتِّ في عَضُدِهم.

والثاني: أن يكونَ أعظَمَ مِن البُكاء على فساد الدين، ومظاهر الشرك، وانتشار البدع، ومحادَّةِ الله ورسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإلى هذا أشارَ ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله[1]: «مِن عَجيبِ ما نَقَدتُ مِن أحوالِ الناس كَثْرَةُ ما ناحُوا على خَرابِ الدِّيار، ومَوتِ الأقارِب والأسلاف، والتَّحَسُّر على الأرزاق بذَمِّ الزَّمان وأهلِه، وذِكر نَـكَدِ العيش فيه، وقد رَأَوْا مِن انهِدامِ الإسلام، وشَعَثِ الأديان، ومَوتِ السُّنَن، وظُهورِ البِدَع، وارتِكابِ المعاصي، وقَضٍّ في الفارِغ الذي لا يُجْدِي، والقَبيحِ الذي يُوبِقُ ويُؤْذِي، **فلا أَجِدُ مِنهم مَن ناحَ على دينِه**، ولا بكَى على فارِط عُمرِه، ولا آسَى على فائِتِ دَهْرِه، **وما أَرى لذلك سببًا إلَّا قِلَّةَ مُبالاتِهم بالأديان**، وعِظَمَ الدنيا في عُيونِهم، **ضِدَّ ما كان عليه السَّلَفُ الصالِحُ، يَرْضَونَ بالبَلاغ، ويَنُوحُون على الدين**» . انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو متينٍ واضح.

-تمَّت بحمد الله-

1- نقله عنه ابن مفلح المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الآداب الشرعية» (2/ 244) (3/ 240).

فهرس الموضوعات

المقدمة 1
الداعي إلى تأليف الكتاب..... 1
الحياة مبنيَّة على الابتلاء 5
الحياة بين منزلتي الشكر والصبر 7
منزلة الصبر من الدين وفوائد الابتلاء للمسلمين 11
عِظَمُ الأَجر لَمن حقَّق عِبادةَ الصبر..... 12
فوائد الـمِحَن والبلايا 15
سؤال الله العافية وعدم التعرض للبلاء 23
المصائب نوعان: مصيبة في الدنيا وأخرى في الدين 29
حقيقة مصيبة الدنيا 29
نصوص في ذَمِّ الدنيا مقارَنة بالآخرة 33
الدنيا لا تُذَمُّ بإطلاق 36
القَدْرُ المَذمومُ مِن الدنيا 38
حقيقة مصيبة الدين..... 40
أعظم المصائب: مصيبة الدين 44

آثار الذنوب كثيرة وأعظمها العقاب في الدين..... 45

شرح حديث: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا»..... 53

أعظم المصائب في الدنيا: موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... 56

البكاء على ضياع الدين أعظم من ضياع الطين..... 60

فهرس الموضوعات..... 61